﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ [الحديد: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

دعـوةُ القـرآنِ للـقـلـوبِ أن تـخـشـعَ لـذِكْـرِ ربِّها

لمّا كان قولُه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ نذيرًا قاطعًا وموعظةً بالغةً تُزيل الغُرورَ عن النّفوس، وتكشفُ عن الأبصار غشاوتها؛ أتبعها ما يدعو إلى الرّجوع الصّادق، والتّعلّق الوثيق بكلام الله المبين؛ لما فيه من آيات الزّجر والتّرهيب لِمَن قست قلوبُهم، وحثّتهم بالعودة إليه قبلَ فوات الأوان بقوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾؟[1].

ومنها: لمّا ذَكر فيما سبق حالَ المؤمنين والمؤمنات، والجزاءَ المُعدَّ لهم، وموقفَ المنافقين والمنافقاتِ من نور أهل الإيمان، وحرمانِهم من هذا النّور في الدّار الآخرة، وكان ذلك ممّا يدعو القلوبَ إلى الخشوع لربّها، لكنّها تباطأت، فعاتبها الله على ذلك البُطءِ والتّأخّرِ، بقوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَأۡنِ﴾: (أنى) له أصولٌ أربعةٌ: البُطء وما أشبهه من الحلم وغيرِه، وساعةٌ من الزّمان، وإدراكُ الشّيء، وظرفٌ من الظّروف[2]. والفعل منه: أنى يأني إناء، ويدلّ في عمومه على الوقت، ومنه الشّيء يأني إذا تأخّر عن وقته، ويُقال: "تأنيت الرَّجل؛ أي: انتظرتُه، وتأخّرتُ في أمره، ولم أُعجِّلْ"[3]، وآنيت الشّيءَ أنيًّا؛ أيْ: أخّرته عن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 278.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أنى).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أن، الآن).

أوانه، وتأنّيت؛ أيْ: تمهّلت وتأخّرت، والأناة: هي التُّؤدّة والرِّفق، ويُقال: هل أني الرّحيلُ والسّفر؟ ومعناه: هل حان وقتُه؟ ومعناه المِحوريّ: هو أن يتهيّأ الشّيءُ كي يصلحَ حالُه لما يُراد له[1]. ومعنى ﴿يَأۡنِ﴾ في الآية: "ألم يَحِن؟"[2].

2) ﴿تَخۡشَعَ﴾: (خشع) أصلٌ واحدٌ، يدلّ على التّطامُن، يُقال: خَشع، إذا تطامن، وطأطأ رأسه[3]، ومصدره: الخشوع، ومعناه: أن ترمي ببصرك نحو الأرض، وتُطأطئ رأسك تواضعًا، والإنسان الخاشع هو المستكين، ويَرِد الخشوعُ بمعنى الخضوع، فهو مرادف له[4]، ويَرِد بمعنى التّذلّل، ويُستعمل غالبًا فيما يظهر على الجوارح، أمّا الضّراعة فغالبًا ما تُستعمل فيما يَكْمُن في القلب[5]. ومعنى ﴿تَخۡشَعَ﴾ في الآية: حثٌّ لطائفةٍ من المؤمنين على أن تلين وتَرِقّ قلوبُهم عند ذِكْره تعالى[6].

3) ﴿فَطَالَ﴾: (طول) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على فضلٍ وامتدادٍ في الشّيء من ذلك[7]، وطال الشّيء يطول طولًا؛ فهو طويلٌ وهو معروفٌ، والطّول خِلاف العَرْض، ومعناه: الفضل في شيءٍ، والأطولُ نقيضُ الأقْصَر[8]، ويُستعمل الطّول في الأعيان والأعراض والمعاني، فمِن معانيه: طول الزّمن المُقترن بالهمّ وامتداده[9]. والمُراد به في الآية: طولُ الزّمن وامتدادُه بينهم وبين أنبيائهم[10].

4) ﴿ٱلۡأَمَدُ﴾: (أمد) كلمةٌ واحدةٌ لا يُقاس عليها، والأمد: الغاية[11]. والأمد مُنتَهَى الأجل، وهو غاية الشّيء ومداه، والأمد مقارب لمعنى الأبد إلّا في كون هذا الأخير غير مُحددٍ بزمن، وهو الأجل الطّويل الممدود[12]. ومعنى ﴿ٱلۡأَمَدُ﴾ في الآية: هو أمد الحياة؛ أيِ: الزّمن، وأمد انتظار القيامة.

(1) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أنو)، (أنى).
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 539.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشع).
(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (خشع).
(5) الرّاغب، المفردات: (خشع).
(6) السّمعاني، تفسير القرآن: 5/ 372.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طول).
(8) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (طول).
(9) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طول).
(10) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 459.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمد).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمد).

5) ﴿فَقَسَتْ﴾: (قسي) أصلٌ يدلّ على شِدّةٍ وصلابةٍ، من ذلك الحجر القاسي. والقسوة: غِلَظ القلب[1]، و"القسوة: الصّلابة في كلّ شيءٍ، وقسا يقسو فهو قاسٍ، وليلةٌ قاسيةٌ: شديدة الظُّلمة، والمقاساةُ: معالجة الأمر ومكابدته"[2]، والأصل في معناه: الدّلالة على الصّلابة والقوّة والشّدّة، كالأحجار القاسية، وقد يُشَبَّه بها القلوبُ القاسية؛ وإذا غَلُظَ القلبُ وُصِفَ بالقلب القاسي، وأكثر معاني قسوة القلب تدور حولَ الغِلظة والصّلابة والشِّدّة والخُلوّ من الرّحمة واللّين[3]. ومعنى ﴿فَقَسَتْ﴾ في الآية: صلُبَت حتّى لم تَعُد تنفعل للخير، ولا تستجيب للطّاعة[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حـضٌّ رقـيـقٌ وتـقـريـعٌ دقـيـقٌ لـعـودةِ القلوبِ إلى ذِكرِ اللهِ

أما آنَ للمؤمنين أن تخشع قلوبُهم لذِكر الله، وتلينَ لمواعظه وآياته، وأن يُنيبوا إلى كتابه الذي فيه شفاءُ الصّدور، وجَلاءُ القلوب؟! ألم يأنِ لهم أن يتّعظوا وألّا يُشبهوا مَن سبقهم من أهل الكتاب من اليهود، وقد طال عليهم الأمَد، فَنَسوا ما ذُكِّروا به، وقَسَت قلوبُهم، وكان كثيرٌ منهم فاسقين خارجين عن طاعة الله؛ فإنّ طول الأمَد يورث الغفلةَ، والغفلة تُفضي إلى القسوة، وقسوة القلوب إنّما تنشأ من غَلَبَة الشّهوات، وموتِ الشّعور برقابةِ ربّ الأرض والسّماوات[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فصلِ هذه الآيةِ عمّا قبلَها:

الـحـثُّ عـلى اسـتـنـهـاضِ القلوبِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عمّا قبلَه، على وجه الاستئناف[6]؛ إيذانًا بابتداءِ كلامٍ جديدٍ مُستقلٍّ في بنائِهِ، عظيمٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسي).
(2) الخليل، العين: (قسو).
(3) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (قسو).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 108.
(5) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 539.
(6) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 264.

في مضمونه، تُفتَح به آفاقُ التّذكيرِ، وتُستَنهَض فيه القلوبُ المؤمنة من رقدتها. وممّا يُذْكَر في سِرِّ الفصلِ أنّه استئنافُ ناعٍ عليهم تثاقلَهم في التزام أمور الدّين، وتباطُؤَهم في الإقبال على ذِكر الله والانتفاع بالقرآن.

دلالةُ التّعبيرِ بأسلوبِ الاستفهامِ ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾:

إيقاظُ الغافلِ واستنهاضُ المتباطِئِ

جاء التّعبير بأسلوب الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ بدلًا من صيغة الخبر؛ لما يحمله هذا الأسلوب من قوّة الإغراء وشِدّة الحَثّ[1]، فهو استفهامٌ لا يُطلب به الجواب، بل يُقرَع به الوجدان، ويستنهض به الكسل الإيمانيّ، فيبعث في النّفس حياءَ المُتأخِّر، وخَجَلَ المتباطِئ. وممّا يُذْكَر في دلالة ورود هذا التّعبير على هذه الصّورة الاستفهاميّة دونَ الخبريّة ما يحمله من نبرة الإنكار والوعيد، فهو خطابٌ تهديديٌّ موجَّهٌ إلى أولئك المنافقين الذين عاشوا بين المؤمنين، وظُنّ بهم الإيمانُ ظاهرًا، حتّى انكشفت حقائقُهم في الآخرة، وبان شِركُهُم وكفرُهُم[2]، وهذا المعنى على أنّ الآيةَ مَدنيّةٌ في شأن المنافقين.

سِرُّ الاستفهامِ بالهمزةِ مع دخولِها على أداةِ النّفي (لَمْ):

تقريعٌ كاشِفٌ عن إبطاءِ القلوبِ عن الخشوعِ

جاء الاستفهام بالهمزة مع دخولها على أداة النّفي (لَمْ) في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ ليحمل في طيّاته دلالةَ الإبطاء والتّأخّر[3]، لأولئك الذين طال انتظارُ خضوعِ قلوبهم لذِكر الله، على ما مَرّ بهم من المواعظ والآيات. وممّا يُذْكَر في دلالة الاستفهام في هذه الآية أنّه يُؤدّي معنى التّقرير؛ إذ يحمل المخاطَبَ على الإقرار والاعتراف بأنّ وقت خشوع القلوب قد آن، فلا يسعُه إلّا أن يُجيب:

(1) ابن فارس، الصّاحبيّ، ص: 140.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 765.
(3) أبو حيّان، ارتشاف الضّرب: 4/ 1861.

(بلى قد آن)[1]، اعترافًا بالتّقصير، واستنهاضًا خفيًّا للقلوب بعد طول غفلةٍ.

دلالةُ اجتماعِ الاستفهامِ مع الفعلِ المضارعِ ﴿يَأْنِ﴾:

آنَ أوانُ الخشوعِ والخشيةِ، فلِمَ لا تخشعُ القلوبُ؟!.

دخولُ الاستفهامِ المَنفيِّ على الفعل في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ يُعدّ تركيبًا فريدًا، لم يَرِد في القرآن الكريم إلّا في هذا الموضع، وهو واردٌ لإنكار النّفي وتقريرِ المنفيّ في آن واحد، فهو على معنى: قد جاء وقتُ خشوعِ القلب وخشيتِه لذِكْرِ اللّه؛ فلِمَ لمْ تخشع قلوبُهم، ولم يَخْشَوا من بطشِ ربِّهم[2].

سِرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿يَأْنِ﴾ دون (يَحِن):

ألم يَحِنْ وينتهِ ويُدرِكْ إلى الغايةِ وقتُ خشوعِ القلوبِ

عبّر ﷻ بالفعل ﴿يَأْنِ﴾ في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ دون (يَحِن)؛ لأنّه لمّا كان معنى ﴿يَأْنِ﴾ يشمل الحَيْنَ والانتهاءَ والوصولَ إلى الغايةِ المُحدّدةِ[3]، وليس مُجرّدَ وقوعِ الزّمن كما في (يَحِن)، عبّر به ليُبيّن تحقّقَ أوانِ الخشوعِ وخضوعِ القلوب.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَأْنِ﴾:

خطابٌ موجَّهٌ لضعفاءِ الإيمانِ في كلِّ زمانٍ لاستنهاضِهم إلى ذِكرِ اللهِ

يدلُّ التّعبيرُ بالمضارعِ في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ على أنّه قد آن أوانُ خشوعِ قلوبِ المؤمنين لذِكْرِ اللّه، وملامسةِ لينِها لما أنزل ﷻ على نبيّه ﷺ من كتاب تتهلَّل له جلودُ المُتّقين، وترتجفُ له مشاعرُهم ونفوسُهم خشيةً ورَهْبَةً من ربّهم الكريم[4]. ويكون هذا الخطابُ موجَّهًا إلى ضعفاءِ الإيمان من المسلمين في العصر الأوّل، وإلى أمثالهم في كلِّ زمانٍ[5].

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 869.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 455.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 278.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 214.
(5) رضا، تفسير المنار: 5/ 354.

بلاغةُ التّعبيرِ القرآنيِّ على أنّ هذه الآيةَ مكّيّةٌ أو مَدنيّةٌ:

اختلف العلماء في كون هذه السّورة مدنيّةً أو مكّيّةً اختلافًا قويًّا، فذهب بعضهم إلى أنّ صدرَها مكّيٌّ، ويشهد لهذا القول ما أخرجه مُسلمٌ وغيره[1] عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنّه قال: "ما كانَ بَيْنَ إسْلامِنا وبَيْنَ أنْ عاتَبَنا اللّهُ بِهَذِهِ الآيَةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلّا أرْبَعُ سِنينَ"[2]. وعلى أنّ الآية مَدنيّةٌ يكون الخطاب فيها من باب العتاب لطائفةٍ من المؤمنين، أصابهم بعضُ الفتور أو التّكاسل، فيما أُمروا به من الاجتهاد في طاعة المولى سبحانه بعد أن فتح الله تعالى لهم أقطارَ الأرض، ورزقهم بالكثير من لينِ العيشِ، وخيراتِ الدّنيا[3].

إيقاظُ قلوبِ المُقصّرين من أهلِ الإيمانِ

سِرُّ التّعبيرِ بـ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ دون (أما آن):

آثَر القرآنُ الكريمُ استعمالَ صيغةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بدلًا من (أما آنَ للذين آمنوا)؛ لأنّ ﴿أَلَمْ﴾ أداةُ استفهامٍ إنكاريٍّ تُفيد التّقريرَ والتّوبيخ والتّحضيض لبعض المؤمنين على استمرار غفلتهم وبُعْدِهم عن الخشوع، فالوقتُ قد حان بالفعل لخشوع قلوبِهم لذِكر الله، ومعنى (أما آن) محضُ استفهامٍ عن حلول الوقت دون تضمينِ معنى التّوبيخ، أو التّقريرِ الشّديدِ.

عتابٌ وتأنيبٌ لبعضِ المؤمنين على غفلتِهم بعد حلولِ وقتِ الخشوعِ

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

اللّام في ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دالّةٌ على الاختصاص[4]؛ أيْ: تخصيص وقتِ الخُشوع بفئةٍ معيّنةٍ من المؤمنين، فلا يكون الوقت قد آن إلّا لهم دونَ غيرِهم، فيُبرزُ ذلك خصوصيّةَ هذا النّداءِ، وحصرَه بمَن يستحقّونَهُ من أهل الإيمان. ويجوز أن تدلَّ اللّامُ في قوله تعالى:

تخصيصُ وقتِ الخشوعِ للمؤمنين

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 164.
(2) مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: (3027)، ويُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 353.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 213.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 343.

﴿*أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على العِلّة، بمعنى أنّها مبنيّةٌ على سببٍ خاصٍّ؛ أيْ: ألم يَحِن الوقتُ لأجل الذين آمنوا ليَخْشَعوا، أو بمعنًى آخر: ألم يَحِقّ حضورُ وقتِ الخشوعِ لأجلهم[1].

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دون المؤمنين:

التّعبير بالموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يكمن في اعتبار أنّ الإيمان هنا ليس مجرَّدَ لقبٍ، أو صفةٍ ثابتةٍ، بل هو سببٌ ينبغي أن يتحقّق معه فعلُ خشوعِ القلب، فالخبرُ ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾ حكمٌ مبنيٌّ على قاعدةٍ إيمانيّةٍ، وهي أنّ إيمانَهم المُفترضَ يقتضي ظهورَ خشوعِ القلبِ، وعلى هذا فالإيمانُ الحقيقيُّ لا يَكتمِلُ إلّا بخشوعِ القلبِ وخضوعِهِ.

الإيمانُ ليس مجرّدَ لقبٍ أو صفةٍ ثابتةٍ، بل سلوكٌ وعملٌ

بلاغةُ التّعبيرِ بفعلِ الإيمانِ ماضيًا:

التّعبيرُ بفعل الإيمان ماضيًا ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ دون المضارع (يؤمنوا)، يدلُّ على عدمِ زيادةِ الإيمانِ في الالتزامِ بأوامرِ اللّهِ ونواهيه؛ بخلافِ المضارعِ الذي يدلُّ على تجدُّدِ الإيمانِ كلّما جاء أمرٌ أو نهيٌ التزموا، وقالوا: سمعنا وأطعنا؛ أمّا هذا الصّنف فضَعُفوا وقَسَت قلوبُهم، ومالوا إلى مَلذّات الدّنيا، وأعرضوا عن مواعظ القرآن[2]؛ لذلك كان التّعبير القرآنيّ داعيًا إلى إيقاظهم من غفلتهم.

إيمانٌ يشوبُهُ النّقصانُ

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مع أنّه لم يكن في مكّة منافقون:

التّعبير بقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مع خُلوّ البيئة المَكّيّة من النّفاق والمنافقين، يدلّ على أنّ الخطاب موجَّهٌ إلى المؤمنين حقًّا، لا إلى مَنْ يُظهرون الإيمانَ نفاقًا، إذ لم يكن بين المسلمين يومَئِذ مَن نافَقَ، ولا اقتضتِ الحالُ وجودَ نفاقٍ، أو داعٍ إليه، فالتّعبيرُ بهذا الوصف لا لإخراج المنافقين، بل لتأكيد أنّ المقصود هم المؤمنون

خطابٌ فيه تنبيهٌ للغافلين وتذكيرٌ للمُقصّرين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 391.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 249.

الذين صدقوا في إيمانهم، ليُبنى الحُكم على هذا الإيمان، ويُقاس عليه أثرُه في القلوب، وقد بلغ هذا الخطابُ من القوّة والتّأثير أن قال ابنُ مسعود ﷺ: "لمّا نزلتْ؛ جعل بعضُنا ينظرُ إلى بعضٍ، ويقول: ما أحدثنا؟"[1]، في إشارةٍ إلى أنّ المؤمنين استشعروا عتابًا لطيفًا على غفلةٍ طرأت، لا نفاقًا ظاهرًا.

دلالةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ ﴿أَن تَخۡشَعَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾ جاء التّعبيرُ بالمصدر المُؤوّل المُنسبك مع ﴿أَن﴾ وصلتِها ﴿أَن تَخۡشَعَ﴾[2]، دون المصدرِ الصّريح (الخشوع)؛ لما فيه من دلالةٍ على الفعل المُتجدِّد والوقوعِ الزَّمنيِّ، لا مجرّدِ وصفٍ ساكنٍ، وكأنّ الخطاب يُحفِّز القلوبَ على الدّخول في حالة الخشوع الآن، فاختيارُ الفعل المُؤوّل يوحي بالفعليّة والحركة.

تحفيزُ القلبِ على خشوعٍ مُتجدّدٍ لا وصفٍ ساكنٍ

دلالةُ توسُّطِ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بين عبارةِ الاستفهامِ والخشوعِ:

في توسُّطِ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بين عبارةِ الاستفهام ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ﴾ والفعلِ المُؤوَّلِ ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾ تشويقٌ بديعٌ، يُمهِّد للغرضِ المقصود، ويُهَيِّئ النّفسَ لاستقباله بأثرٍ أعمق، فلو قيل: ألم يأنِ أن تخشع قلوب الذين آمنوا، لفاتَ هذا التّرقّب، لكن بتقديم وصفِ الإيمان، وقطعِ السّياق بها، يتولّد في الذّهن سؤالٌ ضمنيٌّ: ماذا يُراد بهؤلاء الذين آمنوا؟ وما المطلوب منهم؟ فيأتي الجواب: أن تخشع قلوبُهم، فيقعَ هذا الجوابُ موقعَ التّأثير والتّحفيز.

تشويقٌ بديعٌ يسبقُ خطابَ العتابِ لتهيئةِ النّفسِ للمقصودِ

سِرُّ التّعبيرِ بالخشوعِ دون الخضوعِ:

جاء التّعبير بالخشوع في قوله: ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾ دون الخضوع؛ لأنّ الخضوع قد يقتصر على الظّاهر من الجوارح، أمّا الخشوع

الخشوعُ مقامُ القلبِ، والخضوعُ ظاهرُ الجوارحِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 390.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 869.

فمَقامُه أرفعُ، إذ هو انكسارُ القلب، وانقيادُه الكاملِ لأوامر الله تعالى، وتعلُّقُه بخشيةٍ ورهبةٍ تُثمِر امتثالًا وعملًا واجتنابًا؛ ولذلك أُسنِد إلى القلوب؛ لأنّها مَحلُّ الصّلاح أو الفساد، وبصلاحِها تصلُح سائرُ الأعضاء[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَخْشَعَ﴾:

تجدّدُ الخشوعِ واستمرارُه في مواطنِ التّذكيرِ والتّأثُّرِ

استعمالُ الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ لما فيه من مَزيَّة التّجدُّد والاستمرار، إذ إنّ الخشوعَ ليس حالةً طارئةً تنقضي بحدوثها، بل هو حالٌ يتكرّر في المواطن المختلفة، ويتجدّدُ مع كلّ موقف من مواقف التّذكير والتّأثّر، فـ"ترقّ وتلين قلوبُهم إذا ذُكِر الله؛ فإنّ ذِكر اللهِ سببٌ لخشوع القلوب"[2].

دلالةُ إسنادِ الخشوعِ إلى القلوبِ دونَ الأصواتِ:

المقامُ تنبيهٌ للغافلين وتذكيرٌ للمُقصّرين

أُسنِد الخشوعُ في قوله تعالى: ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى القلوب، دون أن يُسنَد إلى الأصوات، كما في قوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: 108]؛ لأنّ المقام هنا مقامُ تذكيرٍ وتنبيهٍ للمؤمنين على وجوبِ التّفاعل القلبيّ العميق مع آياتِ اللهِ وذِكْرِهِ، فليس المطلوبُ سكوتَ الأصواتِ الحاصلَ يومَ القيامة.

سِرُّ إسنادِ الخُشوعِ إلى (القلوبِ):

القلوبُ محلُّ الإيمانِ والتّكليفِ

أُسنِد الخشوعُ إلى القلوبِ دونَ الأفئدةِ في قوله تعالى: ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾؛ لأنّ القلبَ هو اللّفظُ الأشملُ والأكثرُ تداولًا في التّعبير عن مركز الإيمان والشّعور والانقياد، أمّا الفؤاد فغالبًا ما يُستعمل في سياق الإدراك الشّديد أو الوِجدان المُنفعِل، كقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: 10]؛ ولمّا كان الخشوع المطلوب هنا خشوعًا هادئًا مستقرًّا ينبع من الإيمان العميق، لا اضطرابًا وجدانيًّا عابرًا،

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 456.
(2) حقّي، روح البيان: 9/ 363.

نُسب إلى القلوب؛ لأنّها موضعُ التّلقّي الهادئ، ومحلُّ الانكسار والإنابةِ الذي يُثْمِر الطّاعةَ والعملَ.

سِرُّ اختلافِ الأسلوبِ القرآنيّ في تصويرِ أثرِ الذِّكر:

الجمعُ بين الأثرِ الباطنيِّ والظّاهريِّ

اختلف الأسلوبُ القرآنيُّ في تصويرِ أثر الذِّكر، فعبّر هنا (في الحديد) بـ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾؛ لإظهار التّأثّر الباطنيّ العميقِ، وعبّر في (الزُّمر) بـ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزّمر: 23] لبيان الانفعال الظّاهريّ الحِسّيّ، فكلاهما تصويران متكاملان لتأثير الذِّكر في المؤمن ظاهرًا وباطنًا، يُفضيان إلى اللّين والانقياد.

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾:

تعليلٌ لخشوعِ القلوبِ بانفعالِها بذِكْرِ اللهِ

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لام التّعليل؛ أيْ: لأجل ذِكْر الله تعالى، فتخشعُ قلوبُهم بسبب تذكير الله لهم، ووحيه الذي بين أيديهم. ويحتمل أن يكون المُراد: خشوعًا يحصل بتأثيرِ تذكير الله إيّاهم بأمرِهِ ونَهْيِهِ[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالذِّكْرِ دون التّسبيحِ:

إفادةُ العمومِ والشّمولِ لكلِّ أنواعِ الذِّكرِ

جاء التّعبيرُ بالذِّكْرِ في قوله: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ دون التّسبيح؛ لأنّه أعمُّ وأشملُ، إذ يحتمل أن يُراد به القرآنُ المُنزّل، أو مُطلقُ ذِكْرِ الله، أو التّذكيرُ بالمواعظ والعِبَر[2]، والسّياق في الآية سياقُ موعظةٍ وتنبيهٍ، لا تسبيحٍ وتنزيهٍ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾:

شمولُ ذِكرِ اسمِهِ تعالى على جميعِ الوجوهِ

في إضافة الذّكر إلى لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بيانُ أنّ المُراد مُطلقُ ذِكْرِ اسمِهِ على أيِّ وجهٍ كان[3]، سواءٌ أكان تسبيحًا، أو تهليلًا، أو تلاوةً للقرآن، أو تذكيرًا بمواعظه وأوامره،

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 264، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 391.
(2) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 346.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 318.

فالإضافةُ هنا تُفيد شمولَ كلِّ ما يتّصل بذِكْرِ الله. وممّا يُذْكَر في دلالة إضافة الذِّكر إلى لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أنّ الذِّكر مُضافٌ إلى المفعول لا الفاعل؛ أيْ: لذِكرهم هم لله، والمعنى: ينبغي أن يكون ذِكْرهم لله ذا أثرٍ في قلوبهم، يورثهم خشوعًا وخشيةً، لا أن يكون ذِكرَ غفلةٍ لا يُحرِّك القلبَ ولا يورِث انقيادًا[1].

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

لفظُ الجلالةِ جامعٌ لكلّ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ

جاء التّعبيرُ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ دونَ لفظِ (الرّبّ)؛ لأنّ الاسمَ الجليلَ هو الاسم الجامع الكامل الذي يستجمع كلَّ الأسماءِ والصّفات الإلهَيّة في ذاته، الشّاملِ لجميع الأوصاف والمقامات، الذي يسقط الحاجةَ إلى أيّ إضافاتٍ أو تخصيصات[2]، وفيه مزيدُ دعوةٍ إلى تربية المهابة في القلوب.

سِرُّ التّعبيرِ بـ(الذِّكر):

الذِّكْرُ أعمُّ من التّذكيرِ

آثَر القرآن الكريمُ التّعبيرَ بالذِّكر في قوله: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ دونَ لفظ التّذكير، لأنَّ الذِّكر هنا أعمّ وأشمل، فهو يشمل آياتِ اللهِ ووعدَه ووعيدَه، فضلًا عن عموم الذِّكر والموعظة[3]، فلا يقتصر على مجرّد التّذكير المنطوق، بل يتضمّن كلَّ ما يُحرِّك القلوبَ ويوقظُها من حقائقَ إيمانيّة ومواعظَ تحذيريّة.

دلالةُ العطفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَمَا نَزَلَ﴾:

تنزيلُ تغايرِ الوَصفيْن منزلةَ تغايُرِ الذّاتِ

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَلَ﴾ في موضعِ جرٍّ عطفًا على ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[4]، وهو من باب عطف أحد الوصفيْن على الآخر، تنزيلًا لمغايرة الوصفيْن، منزلةَ تغايرِ الذّات، إذِ المُرادُ بذِكْرِ الله القرآن الكريم[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 460.
(2) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 389.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 343.
(4) المنتجب، الفريد: 6/ 101.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 456.

سِرُّ التّعبيرِ بـ (ما) دون (الذي):

إفـادةُ العـمومِ لكلّ ما أنزلَ اللهُ من آياتٍ قرآنيّةٍ

آثَر القرآن الكريمُ التّعبير بـ (ما) في قوله: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ دون (الذي)؛ لإفادة العموم لكلّ ما أنزل اللّهُ من آيات القرآن في مواعظه وترهيبه وترغيبه، ويجوز أن يُحمَل على كلّ ما أنزله اللّهُ من الكتب السّماويّة على أنبيائه ورسله. ويحتمل أن يكون المراد نزولَ السّكينةِ عند قراءة القرآن الكريم، والمُرادُ بها الواردات الإلهيّة، يُؤكّد ذلك ما رواه البراء بن عازب ﷺ في قصّة الرّجل الذي كان يقرأ سورةَ الكهف، وإلى جانبه حصانٌ مربوطٌ وتغشّتْهُ سحابةٌ؛ فجعلت تدنو وتدنو، وجعلَ فرسُه يَنْفُر؛ فلمّا أصبح أتى النّبيَّ ﷺ؛ فذكر ذلك له؛ فقال: «تلك السّكينةُ تنزَّلت بالقرآن»[1].

أثرُ تعدُّدِ القراءات في قوله: ﴿نَزَلَ﴾:

تـكـامـل المعنى في بيان تشريع الأحكام

في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَلَ﴾ قراءتان؛ الأولَى: قرأ نافع وحفص بتخفيف الزّاي: ﴿وَمَا نَزَلَ﴾، والثّانية: قراءة باقي القُرّاء بالتّشديد: ﴿وَمَا نَزَّلَ﴾[2]، والفَرْقُ في التّلاوة دقيقٌ، أمّا المعنى: فهو القرآن المُنْزَل، بذِكر الحلال والحرام، وبالتّشديد على معنى التّكثير والمبالغة[3] في هذا المُنزّل، وهو القرآن الكريم. ويجوز على قراءة الجماعة بالتّشديد أنّ الله تعالى أنزل القرآن تدريجًا، ليكون تدرُّجًا حكيمًا في بيان الأحكام والشّرائع، بينما على قراءة التّخفيف ما وُجِد إنزالُه على نبيّه ﷺ[4].

سِرُّ تقديمِ (ذِكر الله) على ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾:

تـوكـيـدُ الـخـاصِّ بعد العامِّ لبيانِ ثـبـاتِ الـحـقِّ وتَفرُّدِهِ

تقديم (ذكر الله) على ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ من باب ذِكْرِ الخاصّ بعد العامِّ للتّوكيد، والاهتمامِ بالقرآن الكريم الذي نَزل مُنَجَّمًا أو

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 245، والحديث رواه البخاريُّ ومسلمٌ.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 384.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 406.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 279.

متتابعًا من الآيات، وهو الذّكر الحكيم، الحقُّ الثّابت الذي لا يتبدّل ولا يتغيّر، وليس هناك مثلُه[1]. ويُحتمل أن يكون سرُّ تقديم (ذكر الله) على المُنزّل من الحقّ من باب تفسير العطف وتغايرِ المفهوم لكل منهما، ويكون المُراد من هذا الأخير القرآنَ الكريمَ، فيَحمِل الذِّكرُ المعطوف عليه كلَّ ما عدا ذلك من الذّكر، سواءٌ كان بلسان ناطق، أو بخطرٍ في القلب، وقيل: المُرادُ بالذِّكر هنا هو القرآن نفسُه، فيكون هذا العطفُ من باب عطف التّفسير، أو نابعًا من تغاير المفهومَيْن[2].

سِرُّ تقديمِ الخشوعِ بالذِّكرِ على الخشوعِ بما نزل من القرآنِ:

ذِكْـرُ اللهِ منبعُ الـخُـشـوعِ ومصدرُ الخوفِ الحقيقيِّ

قُدِّمَ الخشوعُ عند ذِكر الله على الخشوع عند سماع ما نزل من القرآن في قوله: ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾؛ لأنّ الخشوع والخوف والخشية لا تنبع إلّا من استحضار جلال الله وذِكْره، وأمّا حصولُها عند تلاوة القرآن، فلِما يتضمَّنُه من ذِكْر اللهِ وأسمائه وآيات عظمتِه، فهو فرعٌ عن الأصل[3].

سِرُّ التّعبيرِ بالإنزالِ دونَ غيرِه:

دلالـةُ الـعُـلـوِّ والـجـلالِ في الـتّـعـبـيرِ عـن قدسيّةِ الوحي

آثر القرآن الكريمُ التّعبيرَ بالإنزال في الفعل ﴿نَزَلَ﴾ دون غيره؛ لما فيه من الإشعار بعُلوّ المُنزِل، وعظمةِ المُنزَل، فهو يدلّ على أنّ القرآن لم يكن أمرًا عاديًّا، أو صادرًا من البشر، بل هو وحيٌ نازلٌ من عَلٍ، محاطٌ بهيبة القَداسة ورفعةِ المصدر، ولأنّ التّعبير بالإنزال يوحي بالسّموّ والعُلوّ والجلال، ويُضفي على النّصّ منزلةً سامقةً تُشْعِر المُتلقّي بعظمة ما يتلقّاه.

دلالةُ استعمالِ صيغةِ الماضي ﴿نَزَلَ﴾:

استعمال صيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ﴾ تُفيد التَّحقُّقَ

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 343.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 207.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 461.

والثّبوتَ، بما يقطع دابرَ كلِّ مُشَكِّكٍ، ويَمحو ظَنَّ كلِّ مُرتابٍ، وفيها إشارةٌ إلى أنّ سائر ما يُنسب للوَحي في الكُتب السّابقة قد دخله التّحريفُ والدّخيل، أمّا هذا الذِّكرُ الحكيم فقد ثبت نزولُه ثبوتًا لا يعتريه زوالٌ، ولا تنالُه يَدُ التّبديلِ أو التّحوير[1].

دلالـةُ التّحقُّقِ والـثّـبـوتِ تقطعُ دابـرَ كلِّ الشّكوكِ

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾:

دلّ التّعبيرُ بـ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ على أنّ المُراد: ما نزل من الوعد والوعيد والوعظ، ونحوِ ذلك، وعلى هذا تكون ﴿مِنَ﴾ تبعيضيّةً باعتبار أنّ آيات الوعد والوعيد والمواعظِ هي الأسرع في خشوع القلوب وليْنِها[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالحقِّ عن القرآنِ:

سِرُّ التّعبيرِ بـ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ عن القرآنِ يكمن في كونه الحقَّ المعلومَ، والمُقرَّ في كتبهم السّابقة، وهو الذي دعتهم تلك الكتب إلى الإيمان به، كما آمنوا به حين وجدوا صفاتِه منقوشةً في كتبهم[3]، فصار بذلك رابطًا بين الوحيَيْن، وحافزًا للاعتراف به والإيمان به.

شـهـودُ الـكـتـبِ الـسّـابـقـةِ بـأنّـه الحقُّ

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡحَقِّ﴾:

(أل) في كلمة ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ تحتمل أن تكون عهديّةً تُفيد التّعيين والإشارةَ إلى القرآن الكريم تحديدًا[4]، كما يمكن أن تكون جنسيّةً تشمل جميع ما يندرج تحت مفهوم الحقّ من الحلال والحرام، ومن البيّنات والهدى[5]، فتصويرُها بهذا الأسلوب يوسّع دائرةَ الدّلالة بين التّخصيص والتّعميم.

عهديّةٌ تدلّ على أنّـه الـقـرآن، أو جنسيّةٌ تشملُ الحلالَ والحرامَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 279.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 447.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 524.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 524.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 478.

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾:

استمرارُ التّرابطِ بين المَعنَيين في الجملةِ

فعل الكون في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾ في محلّ نصبٍ معطوف على ﴿أَن تَخۡشَعَ﴾؛ أيْ: وألّا يكونوا، إذ الواو هنا واو عطفٍ لا استئنافٍ، ولا يُفصَل ما بعدَها عمّا قبلها إلّا بدليلٍ صارفٍ[1]، ولا دليل هنا، فدلّ السّياق على استمرارِ التّرابط بين الجُملتيْن.

غرضُ النّفي مع ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾:

النّهيُ والتّوجيهُ، لا مُجرّدُ الإخبارِ

النّفيُ في قوله: ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾ واردٌ موردَ النّهي للمؤمنين عن مماثلةِ أهلِ الكتابِ في قسوةِ القلوب، بعد أن وُبِّخوا على غفلتهم[2]، فيكون الغرضُ من النّفي هنا هو النّهي والتّوجيه، لا مجرّد الإخبار.

أثرُ تعدّدِ القراءاتِ في قولِهِ: ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾:

اعتناءٌ بالتّحذيرِ من أن يكونوا كالقاسيةِ قلوبُهم

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾ قراءتان؛ قراءة رويس بالتّاء: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾، وقراءة الباقين بالياء: ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾، ووجه قراءة التّاء أنّها على الخطاب؛ فيجوز أن يكون خطابًا للمؤمنين، ويكون على إضمار القول؛ أيْ: وقُلْ لهم: لا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب، ويجوز أن يكون خطابًا للمنافقين، فيكون محمولًا على ما تقدَّم من الخطاب لهم، والغرض من ذلك التّحذيرُ من الوقوع فيما وقع فيه أهلُ الكتاب. وعلى قراءة الياء يكون قوله: ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾ عطفًا على قوله: ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾، والمعنى: (ألم يَأْنِ لهم أن تخشع قلوبُهم، وألّا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب)[3].

دلالةُ التّحذيرِ بجملةِ ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾:

تحذيرُ المؤمنين من مآلِ أهلِ الكتابِ

التّحذير مُنصبٌّ على ما وقع فيه أهل الكتاب من قسوة القلوب بعد طول الأمد في مزاولة دينهم، والمعنى: فلْيَحذر المؤمنون أن يصيروا

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 4/ 239.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 477.
(3) ابن أبي مريم، المُوضّح: 3/ 1249.

مثلهم، رغم حداثة عهدهم بالدّين؛ فهو تحذيرٌ استباقيٌّ يُفيد خشيةَ الوقوع في القسوة إذا طال الزّمان، كما وقع لأولئك من قبل[1].

دلالةُ حذفِ مُتعلّقِ ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾:

متعلّق ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾ محذوفٌ، ودلالتُه التّوبيخُ والوعظ؛ أيْ: فلا تكونوا مثل اليهود والنّصارى في قسوة القلوب التي ظهرت لديهم قبل بعثة النّبي ﷺ[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالكافِ مع الموصولِ دونَ (مثل):

بلاغةُ التّقاربِ في تشبيههم بأهلِ الكتابِ

استعمَلَ التّعبيرُ القرآنيُّ كافَ التّشبيهِ في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ بدلًا من كلمة (مثل)؛ للدّلالة على وجود تشابهٍ في أمر القسوة، وتصويرُ ذلك بالكاف؛ ليكون التّشبيهُ أقوى وأبلغَ وأشدَّ وقعًا في النّفوس، لتنفيرهم من فعلهم ذاك، بينما (مثل) قد تدلّ على تشبيهٍ أقلّ تأثيرًا، أو أقربَ إلى المَجاز.

دلالةُ التّعبيرِ باسمِ الموصولِ وصلتِهِ ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ﴾:

شمولُ أهلِ الكتابِ في رحلةِ الإيمانِ والابتعادِ

دلالةُ التّعبير بالاسم الموصول ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ﴾ ترتبط بشمول اليهود والنّصارى، إذ كان الجميع في بداية أمرهم يحول الحقّ بينهم وبين شهواتهم، فإذا سمعوا التّوراةَ والإنجيل خشعوا لله، ورقّت قلوبهم، لكن مع طول الزّمان غلبَهم الجَفاءُ والقسوة، وزالت عنهم الرّوعةُ التي كانوا يختبرونها عند سماع الكِتابَيْن، فحدث ما حدث من اتّباع الأهواء وتفرُّقِ السُّبُل[3].

سِرُّ التّعبيرِ بفعلِ الإيتاءِ مبنيًّا للمفعولِ:

الإشعارُ بجلالةِ العَطيّةِ وعظمتِها

آثر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالإيتاءِ في قولِهِ: ﴿أُوتُواْ﴾؛ لأنّه يُستعمل في المعاني العظيمة والأمور الجليلة؛ فقد استعمل القرآن التّعبيرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 391 - 392.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 406.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 181.

بالإيتاء في المُلك نحو قوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، ومع الحكمة نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 269]، ومع القرآن نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: 87]؛ لذلك جاء التّعبير بالإيتاء هنا؛ لأنّه يتعلّق بالتّوراة والإنجيل، ولهما من العَظَمة والتّشريف ما لهما. وجاء الفعل مبنيًّا للمفعول إشعارًا بجلالة العَطيَّة وعظَمتِها، وللتّنبيه على أن مَن أوتوا هذا الكتاب، لو عقلوا لكفاهم ذلك حجّةً وهدايةً. وممّا يُذكر في سِرِّ استعمالِ البناءِ للمفعولِ في جملة: ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ولم يَقُلْ: (كالذين آتيناهم الكتاب)، أو: (كأهل الكتاب)؛ أنّ هذا التّعبير يُستعمل غالبًا في سياق الذّمّ، لاسيّما عند بنائه للمفعول، للدّلالة على التّقصير في حقِّ ما أُعطوا، وهو يشير إلى اليهودِ والنّصارى عمومًا، أمّا (أهل الكتاب) فيُراد بالكتاب على الخصوص: التّوراة والإنجيل[1].

سِرُّ التّعبيرِ بوصفِ الكتابِ: ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

التّعريضُ بأهلِ الكتابِ لقَسوةِ قلوبِهم

التّعبير بوصف الكتاب في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يتضمّن تعريضًا خفيًّا بهم، إذ على الرّغم من أنّ الكتاب بأيديهم وبين ظهرانيهم، فقد كانوا على حالٍ من القسوة والغفلة لا تليق بمَنْ يحمل كلام الله، فجاء الوصفُ توبيخًا مُبطَّنًا يُشير إلى عِظَم التّفريط على الرّغم من عِظَم العَطيّة، فهم أوتوا التّوراة والإنجيل[2]، لكنّهم لم ينتفعوا بنورهما، فصاروا موضع تحذير، لا موضعَ اقتداء.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

دلالــةُ العـهـدِ إشارةٌ إلى التّوراةِ والإنجيلِ

(أل) في قوله تعالى: ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ دالّةٌ على التّعريفِ العهديِّ، فهي تُشير إلى كتابٍ معلومٍ لدى المُخاطَبين، والمقصود به التّوراةُ والإنجيل؛ أي: الكتابان اللّذان أُعطيهما اليهودُ والنّصارى.

(1) الهلال، تفسير القرآن النّريّ: 11/ 343.
(2) الصّابونيّ، صفوة التّفاسير: 3/ 308.

بلاغةُ التّعريضِ بأهلِ الكتابِ:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تعريضٌ بالغٌ بأهل الكتاب، يكشف انحرافَهم عن جادّة الطّاعة، وتنكّبَهم لما أنزله اللّهُ على رسله إليهم[1]، فجاء الأسلوبُ في صيغة النّهي الموجَّه إلى المؤمنين تحذيرًا ضمنيًّا، يُبرز سوءَ حالِ أولئك الذين أوتوا التّوراة والإنجيل، فلم يَصونوا عهدَهما، ولم يَثْبُتوا على هُداهما، فجعلهمُ اللّهُ عبرةً تُضرَب، لا سيرةً تُقتَدى.

إبـــرازُ انـحـرافِ أهلِ الكتابِ عن جادَّةِ الطّاعةِ

سِرُّ التّعبيرِ بإيتاءِ الكتابِ دونَ (أهلِ الكتاب):

التّعبير بقوله تعالى: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دون أن يُقال: (أهل الكتاب)؛ للإشارة إلى بني إسرائيل لا على جهة التّعيين، بل إيحاءً بأنّ التّشبيه مُنصبٌّ على مَن عاصروا موسى عليه السلام، ممّن أوتوا التّوراة[2]، لا على أهل الكتاب في زمن النّبيّ ﷺ مباشرةً، وهذا من دقائق التّعبير؛ إذ لم يُشبَّه المعاصرون للنّبيّ ﷺ بأقرانهم من أهل الكتاب، بل بمَن تقدّمهم زمانًا، تنبيهًا على تكرُّر الانحراف عبرَ الأجيال، وتشابهِ المآلات مع تعاقب الأُمم.

التّشبيهُ مُنصبٌّ على مَن عاصروا مـوسى، لا على المـوجـوديـن في زمـنِ الـرّسـولِ ﷺ

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الجرّ في ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

أُدخِل الجارُّ في ﴿مِن قَبۡلُ﴾ ليُؤذِن بأنّ الاستغراق الزّمنيّ غيرُ مُرادٍ؛ بل المقصود بعضُ ما مضى لا جميعُه. وذلك أنّ إنزال الكتبِ لم يقع في الزّمان الماضي على وجه العموم، بل اختصّ بأقوامٍ مخصوصين، هم بنو إسرائيل[3] من اليهود والنّصارى الذين نزلت عليهم الكتب الإلهيّة قبلَ نزول الحقّ على هذه الأُمّة.

تـخـصـيـصُ بـعـضِ الـزّمـان لا اسـتـغـراقُـه إيماءً إلى اليهودِ والنّصارى

دلالةُ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ ﴿قَبۡلُ﴾:

في التّعبير بالظّرف ﴿قَبۡلُ﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ دلالةٌ على العهد

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 236.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 264.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 279 - 280.

ربـــطُ حـــالِ المـؤمـنـين بـما مـضى مـن عـهـدِ الرّسالاتِ

الأوّل[1]؛ أيْ: ما سبق من إنزال الكتب على بني إسرائيل، فجاءت الظّرفيّة لربط حالِ المؤمنين بما مضى من عهد الرّسالات الأولى. والتّعبير بالقَبليّة؛ أيْ: من قبل نزول القرآن، فيه تحذيرٌ ضمنيٌّ لأهل الإيمان من لُحوقِ الغفلة التي أصابت أهل الكتاب، فلا يكونوا كاليهود والنّصارى ممّن سكنوا الغفلة، فكان في التّعبير تحذيرٌ من أن يصيبَهم ما أصاب أولئك من قسوةٍ وانطفاءِ خشوعٍ[2].

سِرُّ العطف بالفاءِ في قولِهِ: ﴿فَطَالَ﴾:

تفـريـعٌ وتـحـذيـرٌ من مآلِ القسوةِ وسـوءِ عـاقـبـةِ الغَفْلةِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ جيء بها لتفريع حالِ طول الأمَد على ما سبق من عدم الخشوع وقسوة القلوب، لا على أصل التّشبيه، فهي ليست جزءًا من التّشبيه الوارد في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾[3]، بل جاءت خارجةً عنه، تنبيهًا على مآل مَن سلك مسلكَهم، وتحذيرًا للمؤمنين من أن يلحقَهم ما لَحِقَ أولئك من قسوة وغفلة.

دلالةُ استعمالِ الفعلِ ﴿فَطَالَ﴾ مادّةً وصيغةً:

زمنٌ واقعٌ ممتدٌّ بـيـنـهـم وبـين أنبيائِهم

سرّ التّعبير بالفعل ﴿فَطَالَ﴾ يكمن في دلالتيْن؛ دلالة الصّيغة، ودلالة المادّة، فأمّا صيغة الماضي، فلتصويرِ الحَدَث على أنّه واقعٌ مُحقَّق قد استقرّ واستطال، لا مُجرّدُ احتمالٍ؛ إيذانًا بثبات القسوة في قلوبهم نتيجةَ ذلك الأمَد الطّويل، وأمّا مادَّتُه (طال)، فمشحونةٌ بإيحاء الزّمن الممتدّ؛ إشارةً إلى البُعد الزّمنيّ بين هؤلاء وبين أنبيائهم[4].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْهِمُ﴾:

قَـصْـرُ أثـرِ طـولِ الأمَـدِ عـلى بني إسرائيلَ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور على الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾؛ للتّخصيص والاهتمام بالظَّرَف الذي طال عليه الأمد، وهم

(1) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 14/ 297.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 343.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 392.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 343.

بنو إسرائيل في هذا السّياق، ممّا يُبرِز أنَّ طولَ المُدّة كان مُؤثّرًا عليهم بشكلٍ مباشرٍ، وسَبَّبَ قسوةَ قلوبِهم، وانصرافَهم عن ذِكْر الله.

سِرُّ التّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلْأَمَدُ﴾ دونَ غيره:

الدّلالةُ على الاستمرارِ الطّويلِ والامتدادِ الثّقيلِ

اختار النّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلْأَمَدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾، مُفضِّلًا إيّاه على ألفاظٍ أخرى؛ كالمدّة أو الزّمن أو الوقت، لما يحملُه من دلالةٍ على الاستمرار الطّويل والامتداد الثّقيل؛ لأنّه لمّا قصد التّعبيرَ عن امتداد الزّمن البعيد[1]، آثر التّعبير به. وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبير بالأمد: الدّلالة على الزّمن الممنوح تكريمًا وتمديدًا منذ بداية إنزال الكتاب؛ لأنّ الأمَد يُقصَد به الأجلُ أو المُدّة كلُّها، فكِلاهما يُطْلَق على مجموع المُدّة وعلى نهايتها[2].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْأَمَدُ﴾:

آمادٌ مُتعدّدةٌ ومتنوّعةٌ

الألف واللّام في ﴿ٱلْأَمَدُ﴾ تحمل دلالةً استغراقيّة يحتمل معها أكثر من معنًى، فقد يكون أمدَ انتظارِ الفتح، أو أمدَ انتظارِ القيامة، أو أمدَ الحياة الدّنيا[3]، ولذلك اختُلِف في المُراد بطول الأمَد؛ فقيل: المُراد بطول الأمد المُدّةُ التي بينهم وبين أنبيائهم. وقيل: المَيل إلى الدّنيا والإعراضَ عن الموعظة. وقيل: طول أعمارِهم في الغفلة، فحصلت القسوة في قلوبهم بذلك السّبب. وقيل: الأمل البعيد؛ أيْ: لمّا طالت آمالُهم لا جرمَ قست قلوبهم. وقيل: تطاولُ أمدِ خروج النّبيّ عليهم. وقيل: طول أمدِ سماعهم التّوراة والإنجيل، فزال تأثيرُهما عليهم فقست قلوبهم[4].

بلاغةُ المجازِ العقليّ في ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾:

الأمَدُ ظرفُ زمانٍ، والطّولُ ما كان منهم من نسيانٍ وغفلةٍ وخُذلانٍ

قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ من المجاز العقليّ، إذ أُسنِد

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 477.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 280.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 264.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 461.

الطّولُ إلى ﴿ٱلْأَمَدُ﴾ وهو الزّمن، مع أنّ الطّول في الحقيقة هو من صفات المُدّة أو العهد، لا من خصائص الزّمن ذاته، فعلاقةُ الإسنادِ هنا زمانيّة[1]؛ لأنّ الأمَد ظرفٌ زمنيّ، والطّول وصفٌ لحال النّاس فيه.

نوعُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَقَسَتْ﴾، ودلالتُها:

طـالَ الأمَـدُ فَقَسَت القلوبُ وغابَ الخشوعُ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ سببيّةٌ[2]، لأنّ قسوة القلوب كانت نتيجةً حتميّةً لطول الأمد؛ أيْ: لا تكونوا كالذين إذا طالت عليهم المُدّة، ولم يتجدّد في قلوبهم أثرُ الوحي؛ قَسَت قلوبُهم[3]، وانطفأ فيها نورُ الخشوع، فارتدّوا إلى الغفلة والإعراض.

سِرُّ التّعبيرِ بفعلِ القسوةِ دونَ الشِّدَّةِ:

القلوبُ القاسيةُ يَـقِـلُّ خـيرُهـا ويكثرُ شَرُّها

التّعبير بقوله: ﴿فَقَسَتْ﴾ دون ألفاظٍ أخرى كـ(اشتدّت) يدلُّ على صلابة القلب وجموده، لا في شدّته فقط، بل في فقدان خيره، وانطفاءِ قابليّته للانفعال بالطّاعة واللّين للذِّكر، فهي قلوبٌ لم تشتدّ فحسب؛ بل فقدت حيويّتَها، وسكنت إلى المعصية، واستمرأت المخالفة، وفعلت من العصيان ما هو مأثورٌ في سِجِّل بني إسرائيل[4]؛ لذلك كان التّعبير بالقسوة هو المناسب لهذه القلوب؛ لأنّها لا تقبل موعظةً ولا يُجدي معها إصلاحٌ.

دلالةُ الماضي في قولِهِ: ﴿فَقَسَتْ﴾:

قـسـوةٌ ثـابـتـةٌ جعلتِ القلبَ لا يقبلُ الموعظةَ

استعمل التّعبيرُ القرآنيّ الفعلَ ﴿فَقَسَتْ﴾ بصيغة الماضي؛ للدّلالة على أنّ القسوة قد وقعت وثبتت، فهي حالةٌ مستقرّة لا رجعةَ فيها، تُشير إلى قلبٍ لم يَلِن، ولم يَعُد قابلًا للموعظة[5]، أو متفاعِلًا مع الهَدي، بل استحكم فيه الجفاءُ، وانطفأ فيه أثرُ الذِّكر.

---

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 236.
(2) الهلال، تفسير القرآن الزّيّ: 11/ 344.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 126.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 264.
(5) النّحّاس، إعراب القرآن: 4/ 239.

سِرُّ إسنادِ القسوةِ إلى (القلوبِ):

القلبُ موضعُ القسوةِ ومحلُّ التّقلُّبِ بين الإيمانِ والجفاءِ

أسنَد التّعبيرُ القرآنيّ القسوةَ إلى القلوب دونَ الأفئدة في قوله تعالى: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ لأنّ القلوب هي محلّ الإيمان والكفر، واللّين والقسوة، وهي التي تتقلّب وتتأثّر بالفعل أو الإعراض، بخلاف الأفئدة التي تُذْكَر في سياق الانفعالات النّفسيّة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: 10]؛ لذلك كان التّعبير بالقلوب؛ لأنّ القسوة تتناسب معها؛ فهي دالّةٌ هنا على الجمود والجفاء، لا على التّأثُّر أو الخوف.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿فَقَسَتْ﴾:

شدّةُ الغفلةِ وبلوغُها حَدَّ التّصلّبِ الذي انعدم معها التّأثّرُ

في قوله تعالى: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ جاءت القسوةُ إمّا على سبيلِ الاستعارةِ بالكنايةِ، حيثُ شُبِّهت قلوبهم بشيءٍ بدأ رِخوًا ثمّ اشتدّ وصَلُب، فحُذِف المُشبَّهُ به، ورُمِزَ إليه بلفظ القسوة، أو هي استعارة تصريحيّة تمّ فيها تشبيهُ غفلةِ قلوبهم عن ذِكْر الله بالقسوة والصّلابة، فهي استعارةُ محسوسٍ لمحسوسٍ، ويَكْمُنُ سِرُّ البلاغة في هذه الصّورة في شدّةِ الغفلة، وبلوغِها حدَّ التّصلّب، بما يدلّ على انعدام التّفاعل مع الموعظة، والتّجرُّد من التّأثُّر بالمؤثّرات الخارجيّة الطّارئة[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالقسوةِ عن النّسيانِ:

تمرّدُ القلوبِ على استمراءِ المخالفةِ لشرعِ اللهِ والتّجرّؤُ على أوامِرِهِ

استعمال القسوة في الآية كنايةٌ عن النّسيان المُتعمَّد لما أوصوا به، إذ خالفوا أحكامَ شرائعهم، ولم يهابوا وعيدَ الله، بل انغمسوا في حُطام الدّنيا، وقالوا: سيغفر لنا؛ فنبذوا الوحيَ وراءَ ظهورهم، واستبدلوه بعَرَضٍ زائلٍ، حتّى صار ذلك طبعًا لهم، يتكرَّر شيئًا فشيئًا حتّى ألِفوه، فتمرّدت قلوبُهم على الحقّ، واستساغت تحريفَ أحكام الدّين، فكانت قسوتُها دلالةً على استمراء المخالفة، والتّجرؤ على أمر الله تعالى[2].

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 236.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 392.

دلالةُ الإنصافِ بقولِهِ: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾:

إنـصـافٌ إلـهـيٌّ بـعـدمِ تعميمِ الحُكمِ عليهم دلالـــــةً عـلى العدالةِ

في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ إنصافٌ دقيقٌ للمخاطَبين، إذ لم يُعَمَّم الحكُمُ بالفسقِ على جميعهم، بل نبَّه السّياق على أنّ الفسقَ ليس سجيّةً شاملةً لهم، بل يختصّ بكثيرٍ منهم، لا كلِّهم، فمنهم مَنْ آمن واهتدى، ومنهم مَنْ لم تبلغه الدّعوةُ، فبقيَ على ما جاء به نبيُّه[1]، غيرَ معاندٍ ولا جاحدٍ، فكان في التّعبير مراعاةٌ للعَدْل، وتوقيرٌ للحقائق.

سِرُّ التّعبيرِ بالفسقِ دون الكفرِ:

ذِكْـرُ الفسقِ في مقابلِ الإيمانِ دليـلٌ عـلى أنّـه مُرادِفٌ للكُفرِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالفِسْق دونَ الكفر في قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ لأنّه يدلّ على الكفر في سياقٍ خاصٍّ، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة: 59]، فذِكْرُ الفِسْق في مقابل الإيمانِ يدلُّ على أنّه مُرادفٌ للكفرِ[2].

بلاغةُ ختامِ الآيةِ في قولِهِ: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾:

إبـــرازُ الانـحـدارِ من التّفريطِ إلى الانحرافِ

في ختام الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ بلاغةٌ رفيعةٌ تُجسِّد الانحدارَ التّدريجيّ من التّفريط إلى الانحراف، فكأنّما يُشير السّياقُ إلى أنّ عدم الخشوع والاستجابة للذِّكر في أوّل الأمر، يُفضي مع التّمادي إلى الفسق في آخره[3]. وممّا يُذكَر في بلاغة ختام الآية: أنّ جملة ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ جاءت اعتراضًا في ختام السّياق؛ لتكشفَ أنّ كثيرًا منهم لم يقف عند حَدّ قسوةِ القلوب، بل تجاوزوه إلى نبذ الدّين، وتحريفِ الكتاب، وإفسادِ العقائد، حتّى انتهى بهم الغُلوّ والانحراف إلى دركةِ الكُفر[4].

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 4/ 239.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 393.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 461.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 392 - 393.

دلالةُ الضّميرِ في قولِهِ: ﴿مِّنْهُمْ﴾:

مَرْجِع الضّمير في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ عائدٌ إلى أولئك الذين أوتوا الكتاب، ودلالتُه تُشير إلى أنّ جماعة كبيرة منهم قد فسقوا، لا لجهلهم، بل لإعراضهم المُتعمَّد عن تدبُّر الكتاب، وتركِهمُ النّظرَ فيه[1].

كـثـيرٌ مـن أهـلِ الكتابِ فسقوا، وإلـى الـضّـلالِ سَبَقوا

دلالةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ جملةٌ اسميّةٌ معطوفةٌ على ما سبقها من الجملة الفعليّة[2]، لِتُؤكِّدَ وتُعمِّق الوصف، فكان التّعبيرُ بها دقيقًا في تصوير عراقة الإقدام على الخروج من دائرة الحقّ التي رسمها لهم الكتابُ[3]، والانغماس في الفِسْق والتَّمرُّد على الضّوابط الإلَهيَّة.

صـفـةُ الـفـسـقِ ثابتةٌ في بعضِ أهلِ الكتابِ

بلاغةُ الجِناسِ في قولِهِ: ﴿فَقَسَتْ﴾، ﴿فَٰسِقُونَ﴾:

تتجلّى في قوله تعالى: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ بلاغةٌ محكمةٌ تنضح بجمال الجِناس؛ إذ يجمع التّعبير بين نوعيْن من الجناس في تركيبٍ واحدٍ بديعٍ؛ الأوّل: ما يُعرَف بجناس القلب، حيثُ تتكرّر جذور الحروف في كلمتي ﴿فَقَسَتْ﴾ و﴿فَٰسِقُونَ﴾. والثّاني: هو الجِناس النّاقص[4]، فقسوةُ القلوبِ تُمهِّد لانحراف كثيرٍ منهم إلى الفسق.

مُحَسِّنُ الجناسِ بـيـن الـقـسـوةِ والفِسْقِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخشوع والخضوع:

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 525.
(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 9/ 198.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 280.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 393.

اختيرَ لفظُ الخشوع دون الخضوع؛ لأنّ الخضوع يختصّ غالبًا بما يظهر على الجسد من الانكسار والإقرار بالاستخذاء، أمّا الخشوع فيَمتدّ أثرُه إلى الباطن والظّاهر معًا، فهو يكون في الصّوت والبصر وفي هيئة القلب[1]، دالًّا على تذلُّلٍ عميقٍ وخضوعٍ باطنيٍّ يفيض أثرُه على الجوارح؛ فجاء الخشوعُ هنا ليَدُلّ على انكسار القلوب وانقيادِها لذِكْر الله تعالى، لا على مجرّد خضوعٍ حسّيٍّ للجوارح.

الخشوعُ للقلوبِ، والخضوعُ للجوارحِ

الأمَد والزّمن والوقت:

عبّر المولى سبحانه بلفظِ الأمَد في قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ولم يعبّر بالزّمن أو الوقت؛ لأنّ الوقت مِقدارٌ من الزّمان يُفرَض لأمرٍ مُعيّن[2]. والزّمان أوقاتٌ متواليةٌ لا تُقيَّد بغايةٍ[3]. أمّا الأمَدُ فيَدُلّ على الغاية المُمتدّة التي يُنظر إليها من جهة طولها وانتهاء أجلها، فكأنّه زمنٌ له طرفٌ مقصودٌ بالانتهاء، فاختيارُ الأمَد هنا أبلغُ؛ لأنّ المقصودَ بيانُ طولِ الغاية التي طالت عليهم، إمّا لطول أعمارهم وآمالهم، أو لطول ما بينهم وبين أنبيائهم ﷺ وبُعْدِ العهد بالوحي، وقيل: لطول أمدِ انتظارهم للقيامة والجزاء، أو انتظارهم للفتح والنّصر، وعلى أيٍّ من الأقوال؛ فالأمَدُ يُفيدُ امتدادَ الغاية، واستطالةَ الأجل حتّى أثمرَ ذلك قسوةَ القلوب[4].

الزّمنُ أوقاتٌ متواليةٌ لا يُقيّد بغايةٍ، بخلافِ الأمَدِ

القسوة والشِّدَّة:

في قوله تعالى: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وصفُ القلوب بالقساوة، ولم يُعبّر بالشّدّة؛ ذلك أنّ "القسوة تُستعمل فيما لا يقبل العلاج، ولهذا يوصَف بها القلبُ، وإن لم يكن صلبًا"[5]، وقلوب هؤلاء لا تقبل

تصويرُ القلوبِ القاسيةِ التي لا تقبلُ الإصلاحَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشع).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 576.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 268.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 181.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 109.

العلاج، أمّا الشّدّة: فهي "التزاق الأجزاء بعضِها ببعض، سواءٌ كان الموصوف بها مُلتئمًا أو مُتحلّلًا، والشّدّة مبالغةٌ في وصف الشّيء"[1]، فلم يُعبِّر القرآن بالشّدّة هنا؛ لأنّ الشّدّة في أصل معناها تدلّ على القوّة والصّلابة والالتحام، وقد تُستعمل في مواضع المَدح أحيانًا، كقوله تعالى: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١﴾ [طه: 31]؛ أيْ: قوِّ به ظهري، أمّا القسوة فهي تُستعمل فيما لا يقبل اللّين، ولا العلاج، وفيما ينبو عن الرّحمة والرّفق، ولا يصلح للإصلاح، فالآية تتحدّث عن قلوبٍ مُغلقةٍ لا تَلين ولا تتأثّر، لا عن قلوبٍ مُتماسكةٍ أو قويّةٍ، لذلك كان التّعبير بالقسوة أبلغ في بيان حالها، إذ هي قلوب لا تقبل الموعظة، ولا يدخلها الإصلاحُ، بخلاف الشّدّة التي قد تُفهم على أنّها قوّةٌ تحتمل ذلك.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 108.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الستون،
سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 60 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-66-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 60 : المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-66-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5294607 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"